ثقافة الأطباء عند العرب

- ٢ -

ولما تأسست دار الحكمة في أيام المأمون وانتظم أمر التأليف والترجمة واستكمل جمع الكتب من كل أنحاء العالم ، واتسع نطاق النشر والتعليم أيام جعفر ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، واستوفى العرب حظهم من التحصيل والمعرفة والاطلاع ، انتقلوا الى دور التعمق والتجربة والاستقراء والكشف والاختراع والتأليف وانشاء المعاهد والمشافي ، وساعدهم عليه ظمؤهم الى العلم وتحصيله ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء وأصحاب الغنى به وبالعلماء ، وبذل هؤلاء الأموال لاستكمال ما كانوا يريدونه هم ويريده الأطباء والعلماء . ولم يقتصر الاهتمام على الطب بل تناول الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والقياسات والرصد ، والكيمياء ، عدا اهتمامهم ومساعداتهم وبذلهم الهبات والعطايا بسخاء وكرم للشعراء والأدباء ورجال الدين واطلاقهم الحرية لهم في البحث والقول والعمل .

وفي الحقيقة ان الطبابة لم ترتق وحدها بل ارتقت في هذه العهود المستشفيات والبيمارستانات والمؤسسات والملاجئ الخيرية وانتشرت بكثرة في جميع البلاد الإسلامية : في بغداد والقاهرة ودمشق وحلب ومكة والمدينة وفلسطين ، وفي غرناطة واشبيلية وطليطلة والقيروان .

وفي عهد عبد الرحمن الثالث وولده الحاكم الثاني كانت اسبانيا في جامعاتها ومكتباتها ومدارسها وبيمارستاناتها من أرقى ما وصلت اليه الحضارة العربية ، وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أطبائها وفلاسفتها الذين اشتهروا وأثروا في تقدم العلم والطب ابن رشد ، وابن الطفيل ، وبنو زهر ، وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم .

ومما يدل على عناية العرب واهتمامهم بتشييد المعاهد العلمية والبيمارستانات والخانقاهات وترتيب ادارتها وتنظيمها ، ووقف الأموال والايرادات الكثيرة لتجهيزها وادامتها :

أولاً — كثرة عددها وانتشارها في جميع المدن والعواصم الاسلامية .

ثانياً — اهتمام العالم العربي ملوكاً وأفراداً ووزراء وشعباً بتمويلها ووقف المزارع والأملاك والمرافق لدوام عملها وترقية شؤونها .

ثالثاً — تنظيمها وحسن ادارتها وبذل العناية في هندستها وأثاثاتها .

رابعاً — تخصيص أهم الأطباء للتعليم والتدريس والتمريض فيها .

خامساً — فتحها للعامة والخاصة ، للذكور والاناث .

سادساً — تقسيمها الى فروع وجعل كل فرع خاصاً بقسم من الأمراض .

سابعاً — ربط المدارس الطبية والمكتبات والصيدليات بها .

ثامناً — تزويدها بكل ما تحتاج اليه من مؤونة وزاد وغذاء وأدوية وألبسة ومفروشات ، وأشربة وأدوات ، ومياه نقية ونور وتهوية ، وأسرّة وأغطية ، وجعل وظائف أصحابها من أجلّ الوظائف ورتبهم من أرقى الرتب .

تاسعاً — اعطاء أطبائها وناظريها المرتبات الوفيرة عدا تقديم ما يقوم بكفايتهم من الأرزاق والهبات والجراية وعلوفة الدابة .

عاشراً — جعلها مرجعاً للتجارب ، وتدوين المشاهدات والنتائج ، ومركزاً للتأليف والاكتشاف والاختراع ، ودائرة لامتحان الأطباء والصيادلة واعطاء الاجازات .

وفي كتاب تاريخ البيمارستانات في الاسلام للدكتور أحمد عيسى تفصيل هام وأدلة وافية وصور عن الوقفيات المتعلقة ببيمارستان المنصوري ، والمعتضد ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والنوري ، وصور عن المراسيم التي كان يصدرها الملوك لمن يتولى الطبابة والادارة والخدمة فيها ، والكل يؤيد ما قلناه عن عناية العرب ومبلغ اهتمامهم بها وبايصال النفع العام لرعاياهم .

وكمثال على مقدار العناية والاهتمام يقول الدكتور في صحيفة ٨٦ وفي صفر ٦٨٠ هـ الموافق لعام (١٢٨١) م :

« ولما تكامل البيمارستان (يعني المنصوري) الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي بخط بين القصرين (هما القصر الكبير الشرقي الذي بناه جوهر قائد الفاطميين عام ٣٦٠ والقصر الصغير الذي بناه العزيز بالله أبو منصور نزار سنة ٤٥٠ هـ) من القاهرة ، وكان ذرعه (١٠٦٠٠) ذراعا . ركب السلطان وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء ، وأخبر بعض من شهد السلطان وشهد عليه أنه استدعى قدحاً من الشراب فشربه ، وقال قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جهز وكفن ودفن . ورتب الحكماء الطبائعية ، والكحالين ، والجرائحية ، والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء . ورتب به الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى واصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام[1] ، وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة ، وعملت الفرش والتخوت والطراريح والأقطاع والمخدات واللحف والملاءات لكل مريض فرش كامل ، وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم ، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها ،

(١) كان الأوربيون يجهلون الحمام ، وكانت مشافيهم كالزرايب ينام المريضان منهم في فراش واحد ، وكان غسل الجسم بالماء والصابون غير مستحب في نظر أطبائهم ، وفرش المرضى كانت منتنة من الرائحة القذرة والعرق . م (٢)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجعلت قاعة للرمد ، وقاعة للجرحي ، وقاعة لمن أفرط به الاسهال ، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين[1] من الرجال ومثله النساء ، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن ، وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات[2] والسفوفات ، وعمل المراهم والأدهان ، وتركيب الدرياقات (الترياقات)[3] وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة ، ومكان يفرّق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج اليه ، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة ، ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده في المرضى يقف عندها المباشر ويمنع عداها ، بل جعله سبيلاً لكل من يصل اليه في سائر الأوقات من غني وفقير ، ولم يقتصر فيه على من يقيم فيه من المرضى بل رتّب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج اليه من الأشربة والأغذية والأدوية حتى ان هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مائتين غير من هو مقيم بالبيمارستان » .

ولا يقل الاعتناء والاهتمام ببقية البيمارستانات أينما كانت عما تقدم بيانه ، ولكن ظروف الزمن وتبدل الحكام ووقوع البلاد العربية تحت حكم الأعاجم والأجانب من مغول وتاتار وصليبيين وعثمانيين جعلها قفرة ، وأضاع أوقافها ووقفياتها ، وبدل معالمها ، وهدم أقسامها ، وشوّه محاسنها ، وكانت في ذلك الحين صورة حية تنطق عن حضارة العرب وما أسدته للعالم من فضل على العلم والطب وخدمة الإنسان وحفظ الحياة والمجتمع .

واذا كنا في استعراضنا لم نستوف المطلوب لبيان سلسلة التطور الطبي والطبابة ، وكان علينا أن نسهب في ذكر الكتب التي ألّفها العرب والمسائل التي فاقوا بها

---

(١) الممرور : من تهيجت فيه المرّة أي السوداء فأثرت على عقله .
(٢) الشيافات : هي الفتايل . مفردها شيافة أو فتيلة .
(٣) الترياق : هو المركب الذي يشفي من السم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من تقدمهم والمكتشفات التي اكتشفوها في أسباب العلل والأمراض ، والأدوية التي اخترعوها لمداواتها ، والآلات الجراحية التي توصلوا الى صنعها للقيام بالعمليات الجراحية ، ومن هم الأطباء الذين غدوا نجوماً في سماء العلم والتعليم يضيئون بنورهم على من كان في زمانهم ومن أتى بعدهم ، وما هي الاختراعات التي وصل اليها العرب في الكيمياء والصيدلة ، والمعالجة ، والتشخيص ، والتحليل وبقية العلوم الطبية وغير الطبية ، فلأن استيفاءها والتفصيل فيما يقتضيه الشرح والتفصيل يحتاج الى مجلدات ويخرجنا عن الموضوع ويبعدنا عن النتيجة التي نريد أن نصل اليها . وخير لنا أن نجيب أخيراً على السؤال الذي سألناه : هل من الضروري أن تتغير أخلاقنا وآدابنا الطبية وتراثنا المهني وصفاتنا الاجتماعية التي اتصف بها أجدادنا الذي رفعوا شأن العلم والطب ؟ فأقول كلا ! لأن المقاييس العلمية والطبية والأخلاقية التي رفعت شأنهم وشأن من تقدمهم وحفظت مكانتهم لا تزال ذات المقاييس في قيمتها وصحتها ولو تبدل الزمن ، وتبدلت مناهج التعليم ، وتضاعفت مواد التدريس وعلا شأن الطب في ساحة المعرفة والاكتشاف والاختراع .

أما أماكن التدريس وكيفية التحصيل وأنواع الكتب التي كانت مواد دراساتهم ومناهج تلك المعاهد فيمكن الوصول الى معرفتها مستخلصين ذلك مما قاله ابن أبي أصيبعة ، والقفطي ، وتاريخ الطب للدكتور أمين أسعد خير الله . فابن أبي أصيبعة يقول : « وكان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، فكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية التي راجعها أساتذتهم وأصلحوها لهم ، وكان هؤلاء يلقون عليهم الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وابن المجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا [1] الذي كسف التعاليم السابقة . »

(١) هو أهم كتاب طبي عربي جمع ما وصل اليه علم الطب والطبابة حتى زمن الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا ، وبقي مرجعاً للدرس والتدريس لكل من أتى بعده مدة ثمانية قرون في الشرق والغرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« ولمشاهدة التطبيقات ونتائج النظريات التي يدرسونها كان الطلبة والمساعدون يفحصون المرضى في العيادة الخارجية ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة ، وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً ويوصف لها العلاج اللازم » .

ويصف لنا في كتابه (عيون الأنباء) كيف كان يتلقى هو الطب ، وكيف كانت الأساتذة يلقون دروسهم ويمرنون طلابهم ، قال : « ولما أقام الشيخ مهذب الدين[1] بدمشق شرع في تدريس صناعة الطب واجتمع اليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه ، وقبلها كنت أشتغل عليه في المعسكر لما كان أبي والحكيم مهذب الدين في خدمة السلطان الكبير ـ يريد به الملك العادل نور الدين منشئ البيمارستان الكبير في دمشق ـ فبقيت أتردد اليه مع الجماعة ، وشرعت في قراءة كتب جالينوس وغيرها . وكان خبيراً بكل ما يقرأ عليه من الكتب ، وكان طلق اللسان ، حسن التأدية للمعاني ، ثم لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان وتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال الصنعة . وكان في ذلك الزمن في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبي وهو من أكبر الأطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً فكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي الى البيمارستان ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها ، فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران

(١) الشيخ مهذب الدين : هو أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار ، انتهت اليه رياسة صناعة الطب ومعرفتها . مولده في دمشق وكان أبوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً ثم أخوه حامد بن علي . وجد له مائة مجلد وأكثر بخطه بالطب وغيره من العلوم . خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب بصناعة الطب ، وترأس البيمارستان النوري (نور الدين محمود بن زنكي) ثم في عام ٦٠٤ أصبح طبيب الملك العادل وطبيب المسكر وكان يتناول مائة دينار كل شهر ورواتب مثلها ، وتولى رئاسة أطباء مصر أيضاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من معالجة المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفيـة استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها » .

ومما سبق يتضح أنه عدا المحاضرات التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب التعليمات اللازمة (الوصفات) وتنفذ بدقة وتدوّن الملاحظات عن كل مريض متتبعة سير المرض . وقد قيل ان الرازي بنى كتابه (الحاوي) على هذه الملاحظات . وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية الجديدة التي كانت تدوّن معلوماتها في كتاب خاص تنشر تحت عنوان (المجرّبات) .

ولم تكن مدارس الطب تابعة للمستشفيات دائماً ، فقد كان هنالك مدارس خاصة ، فالطبيب الغني والمشهور مهذب الدين الدخوار المار ذكره سابقا والذي مات بلا عقب أوقف منزله بدمشق ليكون مدرسة للطب ووقف عليها الممتلكات والقرى ليقوم ايرادها بنفقات المستشفى .

ويقول ابن أبي أصيبعه : « ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلاّ بعد فحص قانوني . وقد بلغ الخليفة العباسي المقتدر بالله في عام ٩٤٩ أن أحد الأطباء في بغداد أخطأ علاج مريض وتوفي المريض بسبب الخطأ ، فأصدر أمره بفحص جميع الأطباء (ما عدا الأطباء القائمين بخدمته) قبل التصريح لهم بتعاطي الطب وكان عددهم في بغداد وحدها (٨٦٠) طبيباً عدا أطباء الخليفة .

وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية خاصة دقيقة ، فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد من بين مائة طبيب . ويقال ان عضد الدولة لما بنى البيمارستان العضدي قصد أن يكون فيه جماعة من أفاضل الأطباء وأعيانهم فأمر أن يحضروا له ذكر المشهورين ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة فاختار منهم خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم في صناعة الطب ، فكان الرازي منهم . ثم انه اقتصر من هؤلاء أيضاً على عشرة فكان الرازي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازي أحدهم ، ثم ميّز بينهم فبان له أن الرازي أفضلهم فجعله (ساعور) البيمارستان العضدي و (الساعور) معناه (عميد الأطباء والمشرف على المستشفى) . وكانت المستشفيات الإسلامية أشهرها المستشفى العضدي في بغداد ، والمستشفى المنصوري في القاهرة ، والمستشفى النوري في دمشق . وكان يوجد غيرها في مختلف العواصم العربية بما يزيد عن ثلاثين مستشفى لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقي والروعة والكثرة وضخامة البناء ، واتقان الهندسة ، وحسن الادارة ، ، ووفرة الأطباء إلاّ بعد أن استكمل العرب نهضتهم ونضوج معارفهم واتساع علمهم » .

ونحن مهما ذكرنا عن فضل العرب في انقاذ الطب والعلوم القديمة المتصلة به من الضياع ، ومهما قلنا عن ترتيبها والاضافة اليها وتسليمها الى أوروبا منسقة واضحة فيكفي أن ننقل ما قاله (لمستون) وغيره عن ذلك كبرهان على صحة قولنا .

يقول (لمستون) : « ان لم يكن للعرب من فضل غير هذا لكفاهم فخرا » .

ويقول الدكتور أمين خير الله : « ولو فرضنا أن العرب لم يضيفوا شيئاً الى معلومات القدماء فمن الاهمية بمكان أنهم أنقذوا تعاليم أبيقراط وجالينوس وحفظوها للعلم والانسانية . والواقع أنهم لم يكتفوا بانقاذها فحسب بل أضافوا اليها أشياء كثيرة وقاموا بنقل العلوم اليونانية والهندية والفارسية وعلوم باقي البلدان المتحضرة في زمانهم ، ووعوا وتفهموا المنطق والفلسفة والفلك والهندسة ، والتاريخ ، والآداب ، والموسيقى ، والكيمياء ، والزراعة ، والبناء والعمران ، وتفهموا جميع هذه العلوم وأضافوا اليها دروسهم واختباراتهم وأنشأوا مدنية عربية صحيحة وأعطوها الى العالم » .

ثم يقول : « واذا عدنا الى الماضي القريب لنتفقد عصر التمدن الإسلامي وزهوه في الغرب والشرق نجد أنه من أكبر الأسباب في نهضة أوروبا ، فالمذاهب العلمية فيها وليدة الثقافة والعلوم العربية ، ونهضتها نتيجة تعاليم ابن سينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والرازي والمجوسي وابن زهر والزهراوي في الطب ، والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن طفيل وابن العربي في الفلسفة ، والطوسي وعمر الخيام وابن يونس والمجريطي والبيروني والخوارزمي في الفلك والحساب ، وابن الهيثم وابن الكندي وابن الصلت في الطبيعيات ، وابن البيطار وابن الصوري وابن وحشية في النبات ، وابن حيان والرازي والزهراوي في الكيمياء .

وللعرب يعود الفضل في رفع مقام الطب وفي اقامة المستشفيات الراقية وفي انشاء وتوسيع الصيدلة ، وجعل الجراحة قسماً منفصلاً عن الطبابه ، وفي التصريح الشرعي لممارسة الطب والصيدلة ، وكان لهم الحظ الأوفر في توضيح المذاهب الفلسفية وحفظها للذرية ، وفي فصل العلم عن الدين ومحاولة التوفيق بين الاعتقاد والبرهان ، وهم الذين أعطوا الروح العلمية الصحيحة للغرب ، وكانت سبباً لايجاد طريقة (باكسون) العلمية ، وعلّموا العلماء البحث عن أسباب الأشياء ذاهبين من المعلوم الى المجهول ، فلا يقطعوا حقيقة أمر إلاّ بعد التثبت من صحته بالتجربة المكررة أو بالملاحظة الدقيقة . وكانت الكيمياء عند العرب كيمياء تجربة ، فالرازي عرف خواص الزئبق بتجربة استعماله على القرود ، وماسويه شرّح قرداً كبيراً وكتب كتاباً عما وجده ، وكانوا اذا لم توصلهم الملاحظة الى الغاية المطلوبة يلجأون الى طريقة المنطق والتحليل وبها اكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الرئوية ، واكتشف ابن الخطيب العدوي في الوافدات . وقبل أن يبدأ باراسلوس اصلاحه الطبي في أوروبا كان العرب قد أدخلوا المنطق والبحث الطبي العلمي وخالفوا التعاليم التي لا تنطبق على منطقهم واختبارهم مهما كان مصدرها » .

وكما استقبل (سقراط) الموت في سبيل عقيدته وعلمه كذلك ثلاثة من أطباء العرب المشهورين استقبلوا الموت بهدوء وشجاعة ، فابن سينا رفض أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتعاطى الدواء وباع كل ما يملكه ووزع ثمنه على الفقراء ، وانقطع الى العبادة وكان يتلو القرآن مرة كل ثلاثة أيام . والرازي رفض أن يعالج مقلتيه بعد أن أضنى بصره في التجارب والبحث والكتابة قائلاً بأنه قد رأى من العالم ما يكفيه . وابن زهر رفض أي اسعاف وقال لولده الذي كان يقوم بخدمته أنه اكتفى من الحياة .

وبعد هذا ما هي الكتب التي كانوا يدرسونها ؟ هل هي كتب الترجمة فحسب أم كتب أخرى ألفها العرب ؟

من يدقق فيما قدمناه من الاستعراض يتبين له أن طلاب الطب في المستشفيات والمعاهد العلمية كانوا يدرسون أولاً الكتب الأدبية ، ثم الكتب الدينية ، ثم الكتب الطبيعية ، ثم الكتب الرياضية والفلسفية ، ثم ينتقلون الى الكتب الطبية . وكان الطلاب يتبعون سيرة أساتذتهم الذين يلازمونهم في جميع مراحل الدراسة حتى إذا أتموها ووثقوا من أنفسهم في بلوغ الغاية ، ووثق أساتذتهم من كفايتهم وأخلاقهم وعلمهم تقدموا للامتحان وأخذ الإجازة في البيمارستانات الشهيرة بعد نجاحهم .

أما الكتب فكانت حتى أيام ابن سينا المجموعة المترجمة عن أبقراط وجالينوس وديوسقوريدس [1] ، وقد أتينا على ذكرها ، ثم ما ألفه الأطباء الذين أتى بهم جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومعظمهم من السريان النسطوريين ومن الصابئة كجورجيس بن بختيشوع وجبرائيل أخيه وعبد الله بن جبرائيل ، وبختيشوع ابن حنا ، وحنين بن اسحاق ، وحبيش الأعسم ، والكندي ، واسحاق بن

(١) ويحيى النحوي ، وقسطا بن لوقا . اما الكتب فقد ذكرناها وهي لأبقراط وجالينوس وعددها (١٦) كتابا كان يقرأها المتطببون على الولاء ، وهناك كتب أخرى هي من ترجمة حبيش وديسقوريدس واصله من عين (زربي) من أعمال حلب ويقال له السائح في البلاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حنين ، وثابت بن قره ، ومنان بن ثابت ، وأبو بشر بن متى ، ويوحنا بن ماسويه . وقد تبين أن معظم الكتب المترجمة كانت بين عام (٧٥٠ — ٨٥٠) بعد الميلاد .

ومن هذه الكتب المترجمة التي ذكرها ابن النديم في فهرسته وابن أبي أصيبعة في تاريخه طبقات الأطباء : (٤٦ كتاباً طبياً ليوحنا بن ماسويه ، و ٨٤ كتاباً ورسالة طبية لحنين بن اسحاق وهي لابقراط وجالينوس عدا ما ترجمه من غير الكتب الطبية ، ولقسطا بن لوقا البعلبكي ٣٢ كتاباً في الطب و ٢٩ كتاباً في الفلك والمنطق والرياضيات والفلسفة ، وللكندي ٣٢ كتاباً طبياً ، ولثابت بن قرة ٤٥ كتاباً) .

وأما التي ألفت فهي شروح ، أو اختصارات ، أو تعليقات ، أو زيادات على ما ترجم ، ولكن عندما ظهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي عام ٣٢٠ — ٣٦٤ هجري بدأ العرب في اثبات كفايتهم وتدوين ثمار اختباراتهم وتأليف كتبهم الطبية بعد نضوج تحقيقاتهم وتجاربهم وتحرياتهم ، وبذلك يكون الطب والطبابة قد انتقلا من المرحلة القديمة إلى المرحلة الجديدة في تاريخ النهضة العربية والثقافة العلمية الطبية ، مرحلة الاكتشاف ، والاختراع ، والتقرير عن التجارب ، والتأليف .

والرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، مسلم النحلة ، مشهور في علم المنطق والهندسة ، كان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم تركه وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً ، وألف كتباً كثيرة أكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الالهية والطبيعية . وكان طبيب المارستان في الري ، ثم طبيب المارستان في بغداد ، بقي فيه طويلا ، وكان بينه وبين منصور بن اسماعيل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صداقة وله ألف كتابه « المنصوري » (١) ثم في آخر عمره عمي بماء نزل على عينيه ولم يسمح بقدحها ، وكان في دولة المكتفي وفي بعض زمن المقتدر .
والرازي من حيث وصفه وسيرته يقول أحد عارفيه محمد بن الحسن الوراق :
« كان شيخاً كبير الرأس ، مسفطا ، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم تلاميذ أخر ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من تلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم ، فاذا أصابوا والا تكلّم الرازي في ذلك وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ، وكان لا يفارق المدارج والنسخ ، وما دخل عليه واحد إلاّ وجده ينسخ أو يسوّد أو يبيّض . وقد تلقى الفلسفة عن البلخي ، وكان البلخي يطوف البلاد ويجول الأرض ، حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة » .

ومما هو معروف في كتب الطب أن الرازي كان أول من وصف الحصبة والجدري ولا يزال وصفه معروفاً في جميع الكتب القديمة والحديثة . وصنف كتاباً آخر سماه « الملوكي » قدمه لعلي ابن صاحب طبرستان ، وفي أول أيامه تعلق بالكيمياء وله تصانيف أيضاً فيها .

وكان الرازي يرمي إلى اثبات امكان تحول العناصر ووحدة الجوهر ، وفي سبيل هذه العقيدة قام بتجاربه التي أدت إلى اكتشاف كثير من المركبات

---

(١) «المنصوري» : ألفه الرازي لمنصور بن اسماعيل بن خاقان صاحب خراسان وما وراء النهر . وكتابه « الحاوي » وضعه في ثلاثين مجلداً ويسمى (الجامع الحاصر لصناعة الطب) . وله تآليف وكتب اخرى يبلغ عددها ما يزيد عن مائة وخمسين عدداً ، وكان عمره ثلاثين سنة عندما قدم الى بغداد وفيها تعلم الطب ودرّس . ومن رسائله المشهورة : (كتاب الجدري والحصبة ، كتاب الأدوية الموجودة في كل مكان ، كتاب الفالج ، كتاب اللقوة ، كتاب النقرس والعرق المديني ، كتاب اوجاع المفاصل ، كتاب الأذنين ، كتاب هيئة العين الخ)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكيميائية . وكتابه « الحاوي » المشهور بين كتبه الثلاثة ألفه لابن عباد ولكن الأجل لم يفسح له المجال فلم يخرجه إلى الوجود ولكن أخرج ورتب بعد وفاته ، وأما كتبه الأخرى ورسائله فهي كثيرة تناولت علوم الطب ، والالهيات ، والفلسفة والطبيعيات ، والكيمياء ، وعلم النفس . وفي كل ما كتب وألف كان علماً لا يجارى في قوة تفكيره ، وسعة احاطته ، ودقة ملاحظته ، وعمق فلسفته ، وصحة منطقه ، وصدق تجاربه .

وبعد الرازي ظهر الفارابي وذلك في عام ٣٣٩ هـ ، وكان الفارابي من مدينة (فاراب) وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان ثم سافر إلى بغداد وبقي فيها مدة وانتقل إلى الشام ، ولما دخل بغداد كان يعرف التركية وعدة لغات غير العربية ، فأتقن اللغة العربية وبلغ فيها غاية الاتقان وأخذ المنطق عن أبي بشر بن متى يونس الحكيم المشهور ثم ارتحل إلى مدينة (حرّان) وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني فأخذ عنه طرفا من المنطق أيضاً وبعدها رجع إلى بغداد وقرأ علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهر في اخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها . ويقال أنه وجد كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط الفارابي أني قرأت هذا الكتاب مائة مرة ولم يزل ببغداد مكباً على الاشتغال بهذا العلم إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه وألف به معظم كتبه [1] ، ثم سافر من بغداد إلى دمشق ولم يقم بها ثم توجه إلى مصر عام ٣٨٣ هـ .

---

(١) الفارابي لم تطبع كل كتبه ، والمطبوع منها : (١) آثار اهل المدينة الفاضلة (٢) الابانة عن غرض ارسطاطاليس (٣) كتاب ما بعد الطبيعة (٤) الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية . (٥) رسائل الفارابي . (٦) شرح الفصوص . (٧) عيون المسائل . (٨) كتاب الموسيقى . (٩) مبادىء الفلسفة القديمة . (عن معجم المطبوعات العربية — السيد يوسف اليان سركيس) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويقول عنه ابن أبي أصيبعة : « كان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً ، وإماماً فاضلاً ، قد اتقن العلوم الحكمية ، وبرع في العلوم الرياضية ، زكي النفس ، قوي الذكاء متجنباً عن الدنيا ، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده ، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين ، وكان له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها . ولما دخل دمشق كان في أول أمره ناطوراً في بستان ، وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها والتطلّع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها ، وكان ضعيف الحال حتى أنه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف ويستضيء بالقنديل الذي للحارس وبقي كذلك مدة ثم عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار أوحد زمانه وعلامة وقته ، واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي وأكرمه اكراماً كثيراً وعرفت منزلته عنده وكان له مؤثراً . »

« وقيل ان الفارابي لزهده لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه ، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكسب . وكان في أول أمره قاضياً فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكليته على تعلمها ، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البته ، وكان يذكر أنه كان يخرج إلى الحراس بالليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرأه ، وكان في صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ، وهو الذي صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات . »

وقال القاضي ابن صاعد بن أحمد بن صاعد في التعريف بطبقات الأمم : « أن الفارابي أخذ صناعة العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى في مدينة السلام . وكان يجتمع بابن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عليه صناعة المنطق . وسئل « أبو نصر » من أعلم أنت أو أرسطو ؟ فقال : « لو أدركته لكنت من أكبر تلاميذه » .

ويدلنا على شغفه في أرسطو وكتبه أنه قال : قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني محتاج إلى معاودته .

ولأبي نصر من الكتب ما ينوف عن السبعة وتسعين كتاباً ورسالة ومقالة تنوعت مواضيعها في شتى العلوم والأدب والاجتماع ، والفلسفة ، والالهيات ، والرياضيات ، والكيمياء ، والموسيقا ، وعلم العدد وغيرها .

وحياة الفارابي تمثل الانقطاع للعلم ، والتجرد للدرس ، والزهد في الدنيا ، وما في الدنيا من زينة ومفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد . وكان قد لقي الأمير سيف الدولة الحمداني وهو في حلب ثم صحبه الأمير معه إلى دمشق ، وفي عام ٣٣١ ألف كتابه (المدينة الفاضلة) وسافر إلى مصر عام ٣٣٨ ورجع إلى دمشق وتوفي بها في رجب سنة ٣٣٩ عند سيف الدولة في خلافة الراضي وصلى عليه الأمير في خمسة عشر رجلاً من خاصته .

وللفارابي دعاء صوفي شهير وقد جاء فيه هذه الأبيات وهي من شعره تكشف لنا عما انطوت عليه روحه الصوفية من عقيدة وحب الهي . قال الفارابي :

يا علة الأشياء جمعاً والذي ... كانت به عن فيضه المنفجر
رب السماوات الطباق ومركز ... في وسطهن من الثرى والأبحر
اني دعوتك مستجيراً مذنباً ... فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من ... كدر الطبيعة والعناصر عنصري

ومع أنه تعلم الطب ولكن ميله للفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات غلب عليه فكان من أكبر فلاسفة الاسلام ، ولم يزاول الطب الصنعة بل أحاط به احاطة تامة وارتشف من حياضه حتى اطفأ ظمأه ثم انعكف على التبحر في المنطق وما وراء الطبيعة فكان له ما أراد من فهم وعلم واطلاع وتأليف وانتاج ، ومع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما كتبه من الكتب العديدة التي أشرنا إليها فانه ألف في الطب كتباً كثيرة ودبّر مارستان الري ثم مارستان بغداد أيام المكتفي . ومن الأسف أن كتبه الطبية ضاع أكثرها ولم ينشر منها ما يذكر ، وأما كتبه الفلسفية فقد نشر منها وطبع : (آثار أهل المدينة الفاضلة ، وما بعد الطبيعة ، والإبانة عن غرض أرسطاطاليس ، وبعض رسالات ترجمت للألمانية ، وكتاب عيون المسائل في المنطق ومبادىء الفلسفة ، وشرح فصوص الحكم ، وكتاب عيون المسائل ، وكتاب الموسيقى) وبقية تآليفه لا تزال في عالم الخفاء كما خفي قبره من الوجود .

وبعد الفارابي يجدر بنا ذكر شيخ الأطباء « جالينوس » عصره الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا . وهو وان كان أشهر من أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر ، فانه وصف سيرته وأحواله بما يغني غيره عن وصفه . ولد عام ٣٧٠ وتوفي عام ٤٢٨ .

قال ابن سينا : « ان أبي كان رجلاً من أهل « بلخ » [1] وانتقل منها إلى بخارى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف والعمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرميثن » من ضياع بخارى وهي من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها « أفشنه » وتزوج أمي منها بها ، وقطن بها ، وولدت منها بها ، وولد أخي ، ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب حتى كاد يقضى مني العجب . وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين وبعد من الاسماعيليين ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخي . وكان ربما تذاكرا بينهما وأنا أسمع منهما وادرك ما يقولانه وابتدءا يدعواني أيضاً اليه ويجريان على لسانهما ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهني

(١) بلخ : كانت القصبة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وفي عام ٣٣ هـ شدّ عليها الحصار ابن قيس الأحنف حتى فتحها ، وبعد زمن اجتاحتها قبائل جنكيزخان فدمرتها وذلك في عام ٦١٦ هـ و ١٢١٢ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلي وكان يدعي الفلسفة وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه ، وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد وكنت من خيرة السائلين وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب (ايساغوجي) ومعناه (المقولات = أو المقدمة للفلسفة) على الناتلي ولما ذكر لي حد الجنس أنه المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ؟ فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله وتعجب مني كل العجب وحذر والدي من شغلي بغير العلم ، وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق وكذلك كتاب اقليدس في الهندسة فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ثم توليت حلّ بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت إلى « المجسطي » (كلمة يونانية معناها الأكبر) وهو كتاب يبحث عن الفلك ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الاشكال الهندسية قال لي الناتلي تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرض عليّ ما تقرأه لأبيّن لك صوابه من خطئه . وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحلّ ذلك الكتاب . فكم من شكل مشكل ما عرفه إلاّ وقت ما عرضته عليه وفهّمته إياه ، ثم فارقني الناتلي متوجهاً إلى (كركانج = مركز لمقاطعة خوارزم) واشتغلت بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعي والالهي ، وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب .

(يتبع) عبد الرحمن الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net